حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به - العدد الاول - شهر رمضان - ١٤٣٢هـ / آيار - ٢٠١١م

١

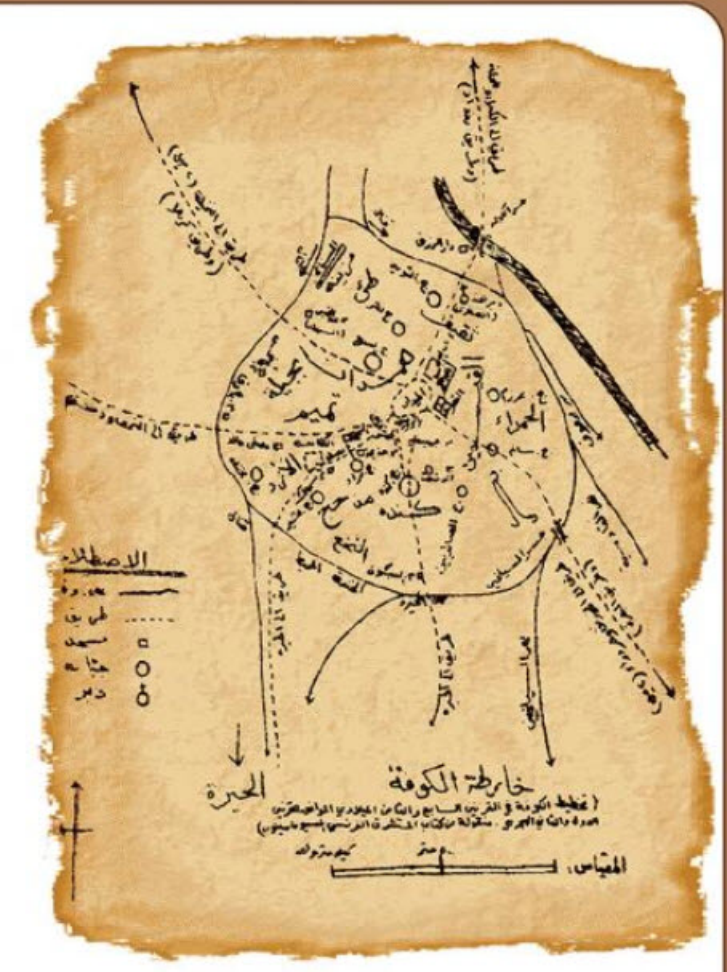

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الكوفة
رحلة في تاريخية الإسم

الأستاذ معن حمدان علي

للعراق تاريخ قديم، ضارب الجذور في عمق الزمن، يمتد إلى آلاف من السنين، وقد مرّت به أدوار حضارية كثيرة، ولا بدّ أن تترك كل واحدة منها آثاراً، وهذا ما حصل، وكان أبرز ما تركت تلك الحضارات آثاراً شاهدة تدل عليها، فضلاً عن أسماء مدن ومناطق بقي أغلبها حياً ليومنا هذا، وقسم من تلك الأسماء ناله التحريف والتصحيف بمرور الزمن، ولو تضافرت جهود علماء الآثار واللغة لفكت الكثير من طلاسم التاريخ، مثلما غيرت المكتشفات الأثرية الكثير من الأمور التي كانت مسلّمة، لا يرقى إليها شك، ولا تحوم حولها ريبة.

فالآثار المكتشفة في العراق أثبتت أن اسم بغداد كان معروفاً منذ العصر البابلي، حيث جاء اسم (بغداد) و(بغدادو) في وثيقة قانونية تعود إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، في زمن الملك الشهير حمورابي، وآخر تلك المكتشفات كانت بقايا المسنَّاة الموجودة على ضفة دجلة اليمنى، والمعروفة شعبياً باسم قصر البرامكة، وهي مشيدة بطابوق عليه ختم الملك البابلي نبوخذ نصّر (٦٠٥-٥٥٨ق.م)، مما يدل على قدم هذا الموضع[١].

ولا بدّ أن تكون هذه المكتشفات قاطعة جهيزة كل «مجتهد» في تفسير معنى اسم بغداد، بعد أن ذهبوا بشأنه مذاهب شتى، ابتداءً من أنها تعني (بستاد داد) من (باغ) و(داد)، أو أن الاسم من أصل هندوأوروبي ويعني عطية، وأخيراً وليس آخراً أنها عربية الأصل مكتوبة من مقطع (بغ) وهو صوت من الهدير، و(داذ) نبات له ثمار تشبه الشعير، يخمّر ويشرب، لتكون بغداد (هدير نبيذ الداذي) أو (هدير الداذي)!!

والأمثلة كثيرة في أصول أسماء المدن العراقية، فقد ورد في تقويم سرجون الأكدي (٢٣٧٠-٢٣١٦ق.م)؛ اسم (كيرخوآنجا) المعروفة الآن باسم (كركوك)، أو (أربـاأيلو) أي مدينة الأربعة آلهة، التي عربت في العصر الإسلامي إلى أربل، واستقرت أخيراً باسم بابل.

وبما أن «الكوفة» اسم لا يمتلك عمقاً تاريخياً مثل بغداد وأربيل، فهنا يحق لي القول: إن من أخطأ فله أجر واحد! لذلك سنحاول الإلمام بتاريخ هذا الاسم والموضع.

* * *

إن أقدم اسم لموضع الكوفة ورد عند المؤرخ اليوناني في القرن الرابع ميلادي أميانوس مرشيليتوس، الذي رافق الإمبراطور جوليان المعروف تاريخياً بالجاحد أو المرتد عام (٣٦٣م) في حملته لمحاربة الفرس الساسانيين؛ هو (فولوجيسيا) أو (فولوغشيا) من أولغاشية أو فولغاشية نسبة إلى الملك الفرثي ولغاش أو (فولغاش) الأول (٥٢-٨٠م)، ويرجح أنها موضع الكوفة الحالية[٢].

والظاهر أن هذه المنطقة تطورت بعد القرن الرابع الميلادي، وقد بنيت فيها مدن وقرى ودساكر، «وكانت الحيرة عاصمة اللخميين.. ومع ذلك لم تكن سوى ثغر من ثغور البادية، ومحل لتبادل البضائع بين العمال الإيرانيين ومأموريهم من جهة، وكبار أصحاب الإبل -البدو- من الجهة الأخرى بصورة مستمرة، كما أنها كانت تجمع بين أهل المدن والقرى الآراميين الشديدي التنصر، وبين العشائر الصغيرة الأليفة من رعاة الغنم التي اعتادت التردد هناك»[٣].

ووصف الشابشتي هذه المنطقة بعد القرن الهجري الأول - القرن السابع الميلادي- قائلاً: «وهذه الديارات بالنجف بظاهر الكوفة، وهو أول الحيرة. وهي قباب وقصور تسمى ديارات

(١) راجع مجلة المورد البغدادية، العدد السابع، السنة ٢٠٠١ عن الشواهد التاريخية في مقال الأستاذ سالم الألوسي (بغداد ما قبل المنصور).

(٢) العراق في القرن الرابع للميلاد، ترجمة فؤاد جميل، الموسوعة الصغيرة، بغداد ١٩٩٨، ص٣٧، الأستاذ سالم الألوسي، موجز دليل آثار الكوفة، بغداد ١٩٦٥ ص٥.

(٣) لويس ماسنيون، خطط الكوفة، ترجمة تقي محمد المصعبي، تحقيق كامل سلمان الجبوري، النجف ١٩٧٩، ص٢٨.

الأساقف، وبحضرتها نهر يعرف بالغدير، عن يمينه قصر أبي الخصيب مولى أبي جعفر (المنصور) وعن شماله (قصر) السّدير، وبين ذلك الديارات»[1].

وهذا ما يفسر أسماء المنطقة التي وردت كلها بالآرامية، فالحيرة التي تبعد أميالاً من الكوفة؛ آرامية النجار من حرتا أو حيرتو، ومعناها المعسكر أو الحصن أو الحاضر، وبحيرة النجف باسم فرثا، أي البثق، وعاقولا؛ الواقعة جنوب مدينة المسيب، ومعناها العوجة أو فتلة الطريق[2]، وإليها ينسب دير العاقول الوارد ذكره في كتب التراث، وأما اسم موضعه الآن فهو الدير، وهي المنطقة التي شهدت مقتل شاعر العرب الخالد المتنبي.

يحدثنا عبد الوهاب العزام الذي زار المنطقة سنة ١٩٢٦، قائلاً: «وقد سألت أعراباً نازلين هناك من قبيلة شمر عن أرض أخرى تسمى الدير من هذه الناحية؛ فنفوا هذا، وسألت عن أسماء العاقول وقنّى والصافية، أتعرف اليوم هي أو ما يقرب منها؟ فنفوا جازمين»[3].

وقد ورد في «تقويم قديم للكنيسة الكلدانية النسطورية»[4] أن الكوفة كان يقال لها: كوبا أو كوبة، وهي كلمة آرامية تعني الشوكة، ونبات العاقول ذلك النبات الشائك المعروف في العراق[5]. وهناك من يرى أن عاقولا كانت تطلق على منطقة تشمل حتى الكوفة[6].

ولدى علماء اللغة العرب أن معنى «الكوبة: الطبل الصغير المخصر، وهو أعجمي، وقال محمد بن كثير؛ الكوبة: النرد بلغة اليمن، وفي الحديث: إن الله يغفر لكل ذنب إلا صاحب عرطبة أو كوبة»[7]، وهذا الحديث يتعارض مع قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلكَ**﴾[8] صدق الله العظيم، وكذب المدلسون.

وجاء أدّي شير ناقلاً ذلك بقوله: «الكوبة: الطبل الصغير المخضر [بضاد معجمة] فارسية كوبة»[9]، وهو نقل غير صحيح وغير دقيق وللأسف.

ثم جاءت المرحلة الأخيرة من تطور اسم الكوفة؛ وهي تمصير العرب لها. والآن السؤال المطروح هو كيف سميت باسم الكوفة؟

في كتاب «فضل الكوفة وفضل أهلها» لأبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن العلوي الحسني الكوفي، وهو من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق، ما يأتي:

«لما نزل المسلمون المدائن أجموها وكرهوها ولم توافقهم، فكتب بذلك سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر: إن العرب لا تصلح إلا حيث تصلح الإبل [!!؟] فارتد إليها منزلاً. قال الهيثم: فبعث سعد برادة يرتادون فانتهوا إلى كويفة ابن عمر. قال الهيثم: فقلت لابن عياش: أين كويفة ابن عمر؟ قال: بزيقيا»[10]، علماً أن بزيقيا كلمة آرامية تعني الباشق أو الباز[11].

* أما الكوفة عند اللغويين العرب فهي تعني:

- الرملة الحمراء المجتمعة.
- أو الرملة المستديرة، وكل رملة تخالطها حصباء.
- أو ما كانت لاجتماع الناس بها، أي من فعل: تكوَّفوا.
- أو أصلها كوفان (بضم الكاف) وهو جبيل صغير فسهلوه واختطوا عليه.
- وهو الأمر المُستدبر.
- والدغل من القصب والخشب.
- أو أصلها كوفان (بفتح الكاف وتشديد الواو) وتعني العز والمنعة لأن جبل ساتيدما محيط بها.
- أو من الكيف؛ وهو القطع، لأن كسرى أبرديز أقطعها لابنه بهرام.
- أو من الكوفان أي المشقة والتعب.
- أو هي من العيب[12].

وهنا أتساءل وأقول: ما الجامع بين هذه المعاني المختلفة؟ ألا يحق لي القول: إن أصل كلمة الكوفة هي كوبة الآرامية، وقد سمعها العرب فحرفوها أو سمعوها مصحفة؟ ولاسيّما أن كل الشواهد التي ينقلها علماء اللغة العرب في المعاجم قبلت بعد تمصير الكوفة.

* * *

(١) الشابشتي الديارات، تحقيق كوركيس عواد ط٢، بغداد، ١٣٨٦-١٩٦٦، ص٢٣٦.

(٢) أوجين منا، دليل الراغبين إلى لغة الآراميين، الموصل ١٩٠٠، يوسف غنيمة، الحيرة، بغداد ١٩٣٦، ص١٠.

(٣) عبد الوهاب عزام، ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، ط١، بغداد ١٣٥٥-١٩٣٦، ص٢٦٢.

(٤) مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٩ ص١٩، عن يعقوب سركيس، مباحث عراقية، بغداد ٩٨١: ١٤٠/٣.

(٥) جبرائيل القرداحي، اللباب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٨٨٧م، ص٥٥٥، عن مباحث عراقية ١٤٠/٣.

(٦) يعقوب سركيس، مباحث عراقية ١٣٩/٣.

(٧) الجواليقي، المعرب من الكلام الأعجمي، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار الكتب، ١٣٨٩-١٩٦٩، ص٢٨٢، ٣٤٣.

(٨) سورة النساء/ الآية ١١٦.

(٩) أدي شير، الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٩.

(١٠) الشيخ محمد حسن آل يس، مجلة البلاغ البغدادية، العدد الثالث ١٣٩٩-١٩٧٩.

(١١) أوجين منا، دليل الراغبين ٦٠.

(١٢) الزبيدي، تاج العروس، تحقيق مصطفى حجازي ٣٤٠/٢٤، ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر ٤٩٠/٤، كامل سلمان الجبوري، تاريخ الكوفة ١٦/١.